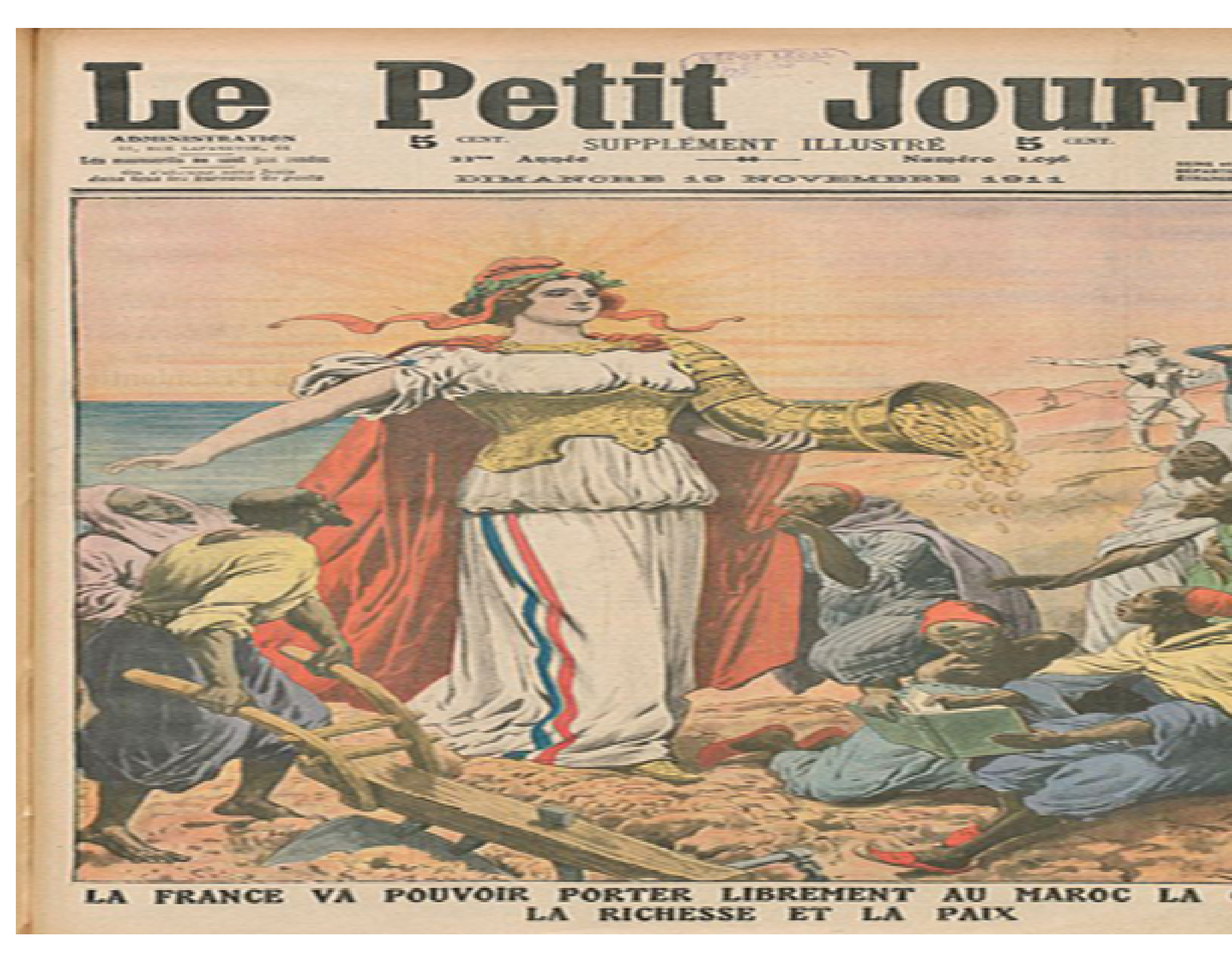




التاريخ : 25/8/2020- آخر تحديث : 1:10

مذكرات الماريشال ليوطي عن المغرب 11 : لماذا نحن الفرنسيون ننتقد ونتفه كل شيء؟


Le Petit Journ
5 CENT. SUPPLÉMENT ILLUSTRÉ 5 CENT.
DIMANCHE 19 NOVEMBRE 1911
LA FRANCE VA POUVOIR PORTER LIBREMENT AU MAROC LA
LA RICHESSE ET LA PAIX

أواصل هنا، في هذه الفسحة الجديدة، الخاصة برمضان 1438 (الموافق لسنة 2017)، ترجمة مذكرات الماريشال ليوطي، الخاصة بمهامه في المغرب. بعد أن ترجمت منذ سنتين أجزاء كبيرة منها ممتدة بين سنوات 1912 و 1917. وهي مذكرات هامة جدا، كونها تعنينا كمغاربة، كونها تقدم لنا معلومات دقيقة عن كيف تشكل المغرب الحديث بعد احتلال فرنسا وإسبانيا لبلادنا، إثر توقيع معاهدة الحماية يوم 30 مارس 1912، والتي مرت عليها الآن 105 من السنوات.
وأهمية هذه المذكرات، كامنة، ليس فقط في كونها وثيقة تاريخية، بل أيضا في كونها كتبت من قبل صانع قرار، لم يكن عاديا قط في تاريخ المغرب الحديث، أثناء وبعد صدمة الإستعمار، الماريشال هوبير ليوطي، أول مقيم عام لفرنسا بالمغرب.
لقد جاء إلى المغرب بعد سنوات قضاها في مدغشقر ثم بالجنوب الغربي للجزائر عند منطقة بشار، وبعدها بمدينة وهران بالجزائر، ليمارس مهام المقيم العام بالرباط ل 14 سنة كاملة. وهي أطول فترة قضاها مقيم عام فرنسي بالمغرب. ليس هذا فقط، بل أهميتها التاريخية أنها كانت مرحلة تأسيسية لشكل الإستعمار الفرنسي في إمبراطورية كان لها منطقها

الدولتي في التاريخ، في كل الشمال الغربي لإفريقيا، هي الإمبراطورية الشريفية المغربية. وأن كل أساسات الدولة الحديثة المغربية قد وضعت في تلك المرحلة، على مستوى إعداد التراب، أو التنظيم المالي، أو القضاء، أو التعليم أو الفلاحة أو المحافظة العقارية أو الجمارك. ومن خلال ما دونه في مذكراته نتتبع بدقة كيف ولدت كل تلك الترسانة التنظيمية للدولة المغربية الحديثة، بلغة صاحبها التي لا تتردد في وصف ذلك ب «العمل الإستعماري»، المغلف بالدور الحضاري. وهي شهادة فيها الكثير من جوانب الجرأة الأدبية التي تستحق الإحترام. ثم الأساسي، أنه كرجل سياسة كتب شهادته وأرخ للأحداث عبر مذكراته الخاصة، من وجهة نظره، ولم يلد بالصمت، بل كان له حس تأريخي، يتأسس على إدراكه أنه يسجل كلمته للتاريخ.

لقد صدرت هذه المذكرات أول ما صدرت سنة 1927، أي سنة واحدة بعد مغادرته المغرب (بقي مقيما عاما بالمغرب من 1912 إلى 1926). ثم أعيد نشرها سنة 1944، في طباعة رابعة، قبل أن يعاد نشرها من قبل كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سنة 2012، إحياء للذكرى 100 لاختيار الرباط عاصمة للمغرب.

لنستمع لصانع من صناع التاريخ المغربي الحديث والمعاصر، كيف يروي قصة الأحداث من وجهة نظره. أو كما قال الزعيم اليساري الفرنسي فرانسوا ميتران عن مذكراته الخاصة هو: «هذه هي الحقيقة من الجهة التي كنت أنظر منها». أي أن للحقيقة دوما جهات أخرى للرؤية والنظر، يكملها عمليا المؤرخون.

الرباط: 14 يوليوز 1918
(تتمة)

كنت، منذ أيام، بالجبهة شمال فاس، ولمست مدى حيوية المساعدين العسكريين القادمين من فرنسا (1)، بذات الروح التي حكيت لكم عنها. توجهت، بعدها، لمقابلة المساعدين العسكريين المقيمين بالمغرب، فقام هؤلاء، الذين أعرف أغلبهم، بالحرص على الإنفراد بي، كل لوحده، كي يقولوا لي ذات العبارة: «كان مفروضا أن أحصل منذ شهر على رخصة عطلة، وأنا أمتلك ضيعة فلاحية لن أجني منها سوى نصف الأرباح التي كنت أجنيها منها حين كنت أشرف عليها بنفسي مباشرة». لم أكن أسمع منهم غير مثل هذه الشكوى. فكان أن جمعتهم كلهم، وألقيت فيهم كلمة غاضبة، قلت لهم: «ألم يترك، جيرانكم وزملاؤكم، من المساعدين العسكريين القادمين من فرنسا، هناك هم أيضا ضيعاتهم الفلاحية وأعمالهم، وحدائق عليهم رعايتها وتشذيبها؟.». ثم عدت ساعات بعد ذلك، حيث قلت لهم بلغة أخف: «لقد فهمتم قصدي في ما أتصور؟». وفعلا كلهم فهموا غاياتي، وعادت لهم الإبتسامة. وكلهم أجابوني: «كنتم على حق تماما في تنبيهنا وهزنا بذلك الشكل. كنا على خطأ. وكنت محقا في انتقادنا، ولن يتكرر ذلك».

هناك أمر آخر، أود أن أنبهكم إليه، إنها الإصرار على تخصيب النقد المسبق ضد مصالحنا الإدارية، المتهمة دوما عن ظلم، بينما أنا شاهد على مدى الجهد الجبار الذي تبدله لتنفيذ الأوامر كلما صدرت إليها. صحيح أن هذه رياضة وطنية عندنا في فرنسا، وهذا سبب كاف كي أناشدكم أنتم أبناء فرنسا الجديدة، أن تقفوا ضد هذا التقليد العام عندنا.

إنني عندما، جلت العالم منذ 25 سنة، قدم لي خبير مجرب في وضعيات مماثلة نصيحة بليغة، حيث قال: «حين تلتقي إنجليزيين تجدهما قد أسسا تجمع شركات. وحين تلتقي ألمانيين، تجدهما قد أسسا ناديا. وحين تلتقي فرنسيين، ستجدهما يتدافعان ويتهم واحدهما الآخر». للأسف، تلك حقيقة صادفتها مرارا، أينما قادتني الأقدار. لأحكي لكم هنا، تجربة منجز فرنسي عشته باعتزاز. كان إنجليزي قد قال لي عنه: «هنا، حيث إنه كما لو أننا في وطننا، لم يكن واردا لنا أبدا أن نقوم بحجم ما أنجزتموه. وهي تجربة لا يمكن إلا أن نتخذها مثالا لنا. وأنا سعيد أن أشهد لكم بذلك من موقعي كإنجليزي». بعدها بلحظات كنت مدعوا للغداء عند مواطن فرنسي. كنت منتشيا، وعبرت له عن إغتباطي بما شاهدته من منجز فرنسي. فكان أن رد علي بسرعة وبشكل جاف: «كل ذلك لاشئ، إنه مجرد واجهة للتزيين، لا شئ صلب. آه، لو كنت أنا من كلفت بإنجاز ذلك». وتصوروا أنه كان بيننا أجانب يستمعون إلى ذلك. لقد علتني حمرة خجل.

إنها حالات كثيرا ما أواجه مثلها هنا كثيرا. وما كنت لأتوقف عندها، لولا أنها سبب مثبط للعزائم والقوى، ولولا أثرها السلبي على الأهالي المغاربة وعلى الأجانب الذين يستمعون لأمور مماثلة. وأيضا لولا، الإحباط الذي يبعثه ذلك في كل مسؤول قائد بإدارتنا. حين نوقن، أنه مهما فعلنا ومهما كانت أهمية ما ننجزه ونقوم به، فإن سيف النقد هنا لتتفيه ذلك.

حينها لا نستطيع، إنسانيا وطبيعيا، التخلص من الإحساس باليأس. لقد قال لي مؤخرا، إنجليزيون وأمريكيون، بالحرف: «جديا، ليس لنا ما نقوله حول حجم ما تم إنجازه هنا، في وقت قياسي». ولم أستطع أن أمنع نفسي من أن أجيبهم: «اذهبوا وأقنعوا أبناء بلدي بذلك. لأنه مع الإستماع لبعضهم وقراءة بعضهم، فنحن نتوفر هنا على أسوأ إدارة وأبطئها. مما يعني أننا لم نقم بأي شئ». لكنهم يردون علي قائلين: «لكن، مهما كان، كيف يمكن نكران 1500 كلمترا من الطرق المعبدة المنجزة خلال أربع سنوات. والموانئ في قمة أشغالها وتوسعتها رغم ظروف الحرب. والضيعات والتعاونيات الفلاحية قد خرجت من العدم».

إنني موقن، أنه الرأي الخاص لكل واحد منكم. فقط، حين نلتقي ونجتمع (نحن كفرنسيين) نشحد السكاكين، واسمحوا على هذا التعابير، فإن رياضتنا الوطنية تتغلب. وهذا ما يجعل مهمتنا صعبة بل متعبة فعلا. لأن رؤساء المصالح، مثلي، هم في حاجة في مهامنا الثقيلة، إلى الدعم الذي يجعلنا نستشعر أننا مسنودون نفسيا وماديا. إن التحديات كبيرة أمامنا، وعلى الجميع أن يضع يده في المعمعة.

ها أنا قد أفرغت عليكم قلبي. والأمر لا يتعلق بشخصي فمهامي تفرض علي أن أكون فوق كل شكوى. بل إن الأمر يتعلق بمساعدي وبقواتنا، الذين علينا أن نخصهم بدعمنا مهما كانت الظروف وفي كل الحالات. ليس فقط من أجل أن يواصلون ذات العطاء بسخاء وقوة، بل لكي يقوموا بذلك بإحساس بالإنصاف، حين يستشعرون أنهم مسنودون من خلاف.

لقد خاطبتكم بصراحة، مباشرة وبقلب مفتوح. والدليل على الإحترام الواجب اتجاه من نقودهم، ليس أن نتزلف إليهم، بل أن نخاطبهم بلغة الحقيقة، وأن ننقل إليهم الوقائع كما هي. إني أعلم مدى تقديركم لي، وأنا ممنون لكم بذلك، وهو تقدير متبادل من جهتي أيضا. فكلكم سندي. لهذا السبب خاطبتكم بهذه الطريقة وبهذه اللغة القاسية، لأنني أريد منكم أن تنخرطوا بالكامل في الأمر وأن تنقلوا ذات اليقين والرجاء للآخرين. ولست نادما أنني أبقيتكم هنا كل هذا الوقت، حين سألمس غدا سواء هنا أو بالدارالبيضاء، أنكم تفهمتم مقصدي، وأنه أمام التحديات التي تنتظرنا في الشهور القادمة، التي ستحدد مصير فرنسا وأيضا مصير المغرب، سنشكل جميعنا فريقا واحدا موحدا، معي ومع مساعدي ومصالحي ومع قواتنا، سواء بالقوة أو بالفعل.

هامش:

1- شكل هؤلاء المساعدون العسكريون، البالغون من العمر ما بين 35 و 50 سنة، دعما مهما للجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى، وأيضا في العديد من مستعمراتها التي كانت تواجه فيها مقاومة مسلحة مثل المغرب. مثلا لم تكن متواجدة بالجزائر وتونس، لعدم وجود مواجهات، هذه القوات المعروفة ب «les territoriaux» أو «Pépères»، عسكرية حينها ضد القوات الفرنسية الإستعمارية.

الكاتب : إعداد: لحسن العسبي

بتاريخ : 08/06/2017

أخبار مرتبطة